من «العظمى» إلى «العالمية».. رحلة بريطانيّة فريدة

القوة الناعمة البريطانية تملك محتوى عظيماً تقدمه للبشرية

تنتهج بريطانيا، القوة العظمى التي تمتلك استخبارات بالغة الأهمية، دبلوماسية ذكية تقربها من الشعوب، ولعل تصرّف السفير البريطاني في بغداد الذي يصنف في خانة "دبلوماسية الأكلات الشعبية"، والذي لاقى تفاعلا كبيرا من متابعيه، خير دليل على أن بريطانيا تمتلك قوة ناعمة ودبلوماسية ذكية قادرة على تحقيق الكثير من أهدافها الاستراتيجية.

حسن إسميك
كاتب أردني

بغداد - مئتا ألف مشاهدة أو أكثر بقليل، هو عدد المرات التي قام فيها متابعون بمشاهدة فيديو السفير البريطاني في العراق ستيفن هيكي على تويتر، وهو يحاول إعداد "الدولمة" الأكلة العراقية الشهيرة. ولم يكتفِ السفير بطبخ الدولمة بل رد مفتخرا على المعلقين الساخرين بأنه يعد البامية والكباب والخبز العراقي أيضا.

وقد يرى البعض أن هذا التصرف تلقائي ولطيف، ولا حاجة لتحميله أبعادا وخلفيات، وأنا أؤيد هذا الرأي كذلك، لكني أرى فيه أيضا نوعا من الدبلوماسية الذكية، ولتكن "إتكيت دبلوماسية الأكلات الشعبية"، التي تندرج في إطار القوة الناعمة البريطانية، والعقل الإنجليزي الاستراتيجي، الذي عمل تاريخيا ولا يزال يعمل ويخطط بدقة متناهية ونفس طويل، ليحقق مصالح بريطانيا ويزيد من مكانتها في العالم.

"لا تغرب الشمس أبدا فوق الإمبراطورية البريطانية".. المقولة التي وصفت "بريطانيا العظمى"، والتي ما زالت صحيحة من الناحية التقنية، جاءت من سيطرة التاج البريطاني سابقا على أكثر من 170 بلدا، ما بين دول ذات سيادة تتبع للمملكة ومستعمرات ومحميات ودول تحت الانتداب وغيرها. ولا أقول هنا بالطبع أن الاحتلال أمر جيد، خاصة بالنسبة لنا نحن الدول التي وقعت يوما تحت نيره، لكني لا أستطيع إلا أن أحترم قوة هذه الدولة، والعقل الإنجليزي الجبار الذي استطاع أن يحتل الكرة الأرضية، بأقل قدر من الدماء، ودون أن تقع بريطانيا تحت احتلال أي دولة.

بعض من دبلوماسية الأكلات الشعبية البريطانية في العراق

ويختلف البريطانيون أنفسهم حول دور بريطانيا في الخارج، بين من يرى فيه قوة للخير ونشرا للقيم، وبين من يرى فيه إمبريالية أثّرت سلبا على نظرة العالم إلى بريطانيا، وعلى التنمية المحلية فيها، فرغم ما حققه "الاستعمار" من مكاسب إلا أنه رتّب تكاليف باهظة ومنهكة على بريطانيا.

ولكن في المقابل، لا يستطيع أحد أن ينفي أن الاقتصاد العالمي الأول كان بريطانيا، وأن العولمة وإطلاق العنان للقوى العابرة للوطنية، والتي خلقت روابط بين الأجزاء النائية من العالم، كان نتيجة اتساع رقعة سيطرة المملكة، وأن "إنجلترا أم البرلمانات" ونظامها التشريعي كان نموذجا لمعظم الأنظمة البرلمانية والقانونية في العالم. ومن بريطانيا وكنتيجة بعيدة للاستعمار نفسه انطلقت الثورة الصناعية، التي ما زالت موجاتها تَحدُث دوريا حتى يومنا هذا، فتحمل التطور والتقدم للعالم كله.

ويخطئ من يظن أن قوة بريطانيا تاريخيا جاءت من قوة أسطولها وحسب، فلا يمكن لأسطول أو جيش مهما كان عديده، السيطرة على الهند والصين، ومعها أميركا الشمالية وأستراليا، ودول أخرى كثيرة وفي وقت واحد.. فالنموذج البريطاني لم يُبنَ على الحروب الدامية، بل على المعرفة قبل كل شيء آخر، عملا بقول رجل الدولة والفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون "المعرفة قوة".

> السفير البريطاني في بغداد يحتاج إلى أن يعدّ الكثير من «الطبخات» السياسية لمساعدة العراق

ولقد قدمت بريطانيا للبشرية الكثير على المستوى المعرفي، وما زالت تقدم، من نيوتن وفلمنج إلى آلان تورنغ وستيفن هوكينغ في العلوم، من شكسبير وديكنز إلى فرجينيا وولف وج.ك. رولينغ في الأدب، وجون لوك الفيلسوف والسياسي، وآدم سميث أبوالاقتصاد الحديث، ومن جون كونستابل وتشابلن إلى البيتلز وكوين في الموسيقى والفن. ومن غراهام بيل مخترع الهاتف إلى هيئة الإذاعة البريطانية بي.بي.سي التي انطلقت عام 1922، وصارت واحدة من أهم وسائل الإعلام العالمية، وما زالت بشبكة قنواتها الغنية تلعب دورا محوريا في الحياة العامة البريطانية، وتؤثر ثقافيا في العالم كله، لتكون أداة فعّالة في قوة بريطانيا الناعمة.

وفي هذا السياق لا يفوتنا الحديث أيضا عن الجمعية الملكية في لندن وهي أقدم مؤسسة علمية وطنية في العالم، تأسست في 28 نوفمبر 1660 ولا تزال قائمة حتى يومنا هذا، وهي عبارة عن مجتمع أكاديمي، يعمل على تعزيز العلم وفوائده، وتقديم المشورة العلمية اللازمة لصنع السياسات، وتعزيز التعاون الدولي. وكذلك، لا بد من التطرق إلى المجلس الثقافي البريطاني الذي تأسس عام 1934، والمكون من شبكة معاهد ثقافية ولغوية، منتشرة في أكثر من مئة دولة في العالم، مهمتها "بناء العلاقات والتفاهم والثقة بين الناس في المملكة المتحدة والبلدان الأخرى، من خلال الفنون والثقافة والتعليم واللغة الإنجليزية".

ويطول الحديث عن القوة الناعمة البريطانية، وعن ركيزتها الأساسية التي تقول بأن "بريطانيا تملك محتوى عظيما تقدمه للبشرية"، وأن كل ما يرتبط بالتاج البريطاني هو فخم وذو جلالة وسمو، من جامعاتها وعلى رأسها أوكسفورد وكامبريدج، وما تنتجه من أبحاث رائدة، إلى شركاتها ومصانعها، إلى سيارات مكلارين ورولز رويس وبنتلي، إلى الأفلام والموسيقى والأزياء، وكل ما يرتبط بها من نشاطات إبداعية، إلى صحفها الكبرى الغارديان والإندبندنت والإيكونوميست... ومراكز أبحاثها وفي مقدمتها تشاتام هاوس، وقاعدته تشاتام هاوس رول التي صارت نظاما عالميا لعقد النقاشات وحلقات العصف الذهني حول الموضوعات المثيرة للجدل. حتى دوري كرة القدم الإنجليزي "البريميرليغ" العريق هو واحد من أدوات القوة الناعمة البريطانية.

وما زالت هذه المؤسسات وغيرها الكثير قائمة وتؤدي أدوارها الحضارية، رغم انحسار دور بريطانيا العالمي في القرن العشرين. وما زالت المملكة المتحدة قوة اقتصادية وعسكرية يحسب لها حساب، حليفة للولايات المتحدة ومن الدول المؤسسة للناتو، لها بعد أوروبي فعال، وعلاقات دولية جيدة ورثتها عن الإمبراطورية كصلاتها الوثيقة مع دول الخليج العربي. بالإضافة إلى زعامتها لدول الكومنولث. وبالتالي صحيح أن المملكة لم تعد "بريطانيا العظمى"، إلا أنه يبقى لـ"بريطانيا العالمية" ذات الدور والمكانة على كل الصعد وفي مختلف أنحاء العالم.

وموازاة للقوة الناعمة كانت الاستخبارات البريطانية أداة بالغة الأهمية في تحقيق الأهداف السياسية للإمبراطورية وللمملكة المتحدة في العالم، ولا يستطيع أحد أن ينفي قدرة هذا الجهاز في بريطانيا، ومهارة وحنكة القادة البريطانيين في توظيفه في ما يخدم أهداف دولتهم ويحقق مصالحها في الخارج. لطالما تصرف معظم القادة الإنجليز كرجال دولة بكل ما للكلمة من معنى، ويقول السياسي البريطاني الأشهر ونستون تشرشل "يتلخص تاريخ العالم كله في حقيقة أنه عندما تكون الدول قوية فهي ليست عادلة دائما، وعندما ترغب في أن تكون عادلة، فإنها غالبا ما تكون غير قوية".

أما آن لنا نحن كعرب أن نتعلم كيف تُتخذ القرارات المصيرية وكيف تدار الدول وتقاد نحو بر القوة والنفوذ والتأثير وتحقيق المصالح، أما آن لأغلب قادتنا أن يقفوا بكل جرأة في وجه ما يتهدد بلادهم من مطامع ومشاريع هيمنة وسلب سيادة، فتكون قراراتهم وتحالفاتهم وعلاقاتهم مبنية فقط على مصلحة دولهم؟ هذا الطريق هو أفضل الطرق وأكثرها أمنا، مرة أخرى كما يقول تشرشل "هناك واجب واحد فقط، مسار واحد آمن، وهو أن تحاول أن تكون على حق وألا تخشى فعل أو قول ما تعتقد أنه صواب".

وبالعودة إلى موضوع السفير البريطاني، أود أن أختم بالقول: لقد أخطأت بريطانيا عندما سمحت للأمور بأن تتدهور في العراق منذ غزوها له مع الولايات المتحدة عام 2003 إلى ما هي عليه اليوم، ويحتاج السفير البريطاني إلى أن يعد الكثير من "الطبخات" السياسية قبل الأكلات الشعبية، بعضها على نار قوية وأخرى على نار هادئة، لمساعدة العراق، فهو واجب على بريطانيا من جهة، وأداة لتعزيز مكانتها في هذا البلد وغيره من البلدان العربية، والتأكيد على أن رسالة بريطانيا هي رسالة صداقة وتعاون وحضارة والتزام بالقيم والوعود.

الشعور بالإهانة يحرك «الذئاب المحاربة»

الذئب المحارب سياسة الصين في مواجهة الغرب

بكين تنتهج دبلوماسية التصريحات العدوانية للدفاع عن مواقفها

اتبعت الصين منذ تنصيب الإدارة الأميركية الديمقراطية منهجا دبلوماسيا خاصا بها في مواجهتها للدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة التي تنافسها على النفوذ الاقتصادي عالميا، وعوض المواجهات العسكرية والتجارية اتخذت بكين دبلوماسية "الذئب المحارب" كاستراتيجية جديدة لدبلوماسيين وسياسيين "يكشرون عن أنيابهم" ويتخذون من التصريحات ووسائل التواصل الحديث منصات نشطة لتوجيه الانتقادات والاتهامات الحادة لكلّ من يقف في صف واشنطن ضدهم.

بكين - في مواجهة الخلافات المتزايدة مع الغرب، باتت الصين ترد بشكل مباشر عبر دبلوماسية جامحة وتطلق "ذئابًا محاربة" لا تتردد في الكشف عن أنيابها.

وقد أعطت العقوبات الغربية الأخيرة على الصين بسبب الانتهاكات المفترضة لحقوق الإنسان في منطقة شينجيانغ وقضية المسلمين الأويغور الدبلوماسيين الصينيين أسبابًا إضافية للرد.

يرى محللون أن الزمن الذي كان يدافع فيه الزعيم الصيني دنغ هسياو بينغ الذي حكم بين 1978 و1992 عن اعتماد دبلوماسية حذرة توصي عملاً بقول صيني مأثور "لا تظهر قوتك، وانتظر أن يحين الوقت المناسب"، قد ولى. فقد تغير توجه الدبلوماسية الصينية على نحو كبير مع وصول الرئيس شي جين بينغ إلى رئاسة الحزب الشيوعي في نهاية 2012، وبدأ تدريجيا في انتهاج سلوك يقوم على التصريحات العدوانية.

تغيير في اللهجة

يقول المحلل الاقتصادي الألماني أندرياس كلوته إن المواجهة بين بكين والغرب تمضي واحدة بواحدة، فعندما يشعر الدبلوماسيون الصينيون بالإهانة فإنهم يتصرفون مثل "محاربي الذئاب" الذين يعتقدون أن رئيسهم شي جين بينغ يريدهم أن يكونوا كذلك.

وتعبير محاربي الذئاب مقتبس من فيلمين من أفلام الحركة الصينية يدوران حول مجموعة من الصينيين يواجهون أشخاصا غربيين أشرارا. والخلاصة هي أن الصين تريد توجيه رسالة إلى الغرب تقول: لا يمكنك العبث معنا بعد الآن.

وكانت بكين، خلال رئاسة دونالد ترامب، تبرر هذا النهج بالمواقف الحادة، البعيدة عن الدبلوماسية، التي كان يطلقها الرئيس الأميركي السابق. ومنذ ذلك الحين، لجأ العديد من الدبلوماسيين الصينيين، ومن بينهم الناطق باسم وزارة الخارجية تشاو ليجيان، إلى تويتر للدفاع وبشدة في بعض الأحيان عن موقف حكومتهم.

وفي خضم وباء كورونا العام الماضي، تسبب ليجيان في جدل حاد من خلال قوله إن رياضيين عسكريين أميركيين ربما جلبوا كوفيد – 19 إلى الصين. وكان ذلك ردا على اتهامات ترامب الذي غالبا ما وصف كورونا بأنه "فايروس صيني" مؤكدا لكن دون أدلة بأن الفايروس قد يكون تسرب من مختبر صيني.

وأثير جدل جديد في ديسمبر مع أستراليا. فعلى خلفية التوتر مع هذا البلد أثار تشاو ليجيان هذه المرة غضب كانبيرا بسب مونتاج صور مثير للجدل حول جرائم حرب مرتكبة في أفغانستان.

وأظهرت الصورة المثيرة للجدل التي وصفتها كانبيرا بأنها "مثيرة للاشمئزاز" رجلا يرتدي زي جندي أسترالي ويمسك بسكين ملطخة بالدماء فوق عنق طفل أفغاني.

> الصين تريد توجيه رسالة من خلال محاربي الذئاب إلى الغرب مفادها لا يمكنك العبث معنا بعد الآن

وأعطى وصول جو بايدن إلى الرئاسة الأميركية بكين أملا في العودة إلى علاقة أكثر سلمية بين أكبر اقتصادين في العالم. لكن أول تواصل صيني – أميركي في حقبة بايدن، شهد على العكس، خطابا حازما من الجانبين أثناء انعقاده في ألاسكا. وهاجم يانغ جيشي أعلى مسؤول شيوعي دبلوماسي صيني وزير الخارجية الأميركي أنتوني بلينكن بحدة ما أثلج صدر الأوساط القومية في الصين.

ويقول ماتيو دوشاتيل مدير برنامج آسيا في معهد مونتين للأبحاث عن موقف جيشي إنه "خطاب قوي" يبدو أنه "شجع الدبلوماسيين الصينيين على الإدلاء بتصريحات نارية".

وبعد أسبوع، وصف القنصل العام الصيني في ريو دي جانيرو لي يانغ على تويتر كندا بأنها "كلب حارس للولايات المتحدة" وتوجه إلى رئيس الوزراء الكندي جاستن ترودو بتعبير غير معتاد في الدوائر الدبلوماسية بكلمة "ولد". أما السفارة الصينية في فرنسا، فقد وصفت باحثا في مؤسسة الأبحاث الاستراتيجية أنطوان بونداز بأنه "ضبع مجنون"، و"قزم أيديولوجي" بسبب مواقفه المناهضة للصين.

ماذا بعد التصعيد

تواجهت بكين وواشنطن في الأشهر الأخيرة بشأن غالبية المسائل، من الأزمة الوبائية مروراً بالتجارة ودور بكين في بحر الصين الجنوبي وصولاً إلى ملف حقوق الإنسان الذي تتهم فيه الولايات المتحدة الصين بارتكاب جرائم بحق مسلمي الأويغور وبحرمان هونغ كونغ من حكمها الذاتي وديمقراطيتها.

ويعتبر الخبير السياسي شونغ جا إيان من جامعة سنغافورة الوطنية أن الدول التي تعتمد على السوق الصينية "أكثر استعدادًا للرضوخ" لمواقف بكين.

على العكس من ذلك، فإن الدول المستهدفة بنيران الغضب الصينية وتحديدا كندا وأستراليا، فلديها الخبرة على التعامل مع الضغوط الصينية والتصدي لها.

ومع ذلك يمكن لبكين أيضا تكثيف ضغطها عبر الإنترنت لإظهار ما تكلفه معارضة الصين، كما يحذر دوشاتيل. لكن بشرط استخدام هذه الشبكات بشكل صحيح.

إلا أن يو صن مديرة برنامج الصين والمدير المشارك لبرنامج شرق آسيا في مركز "ستيمسون" في واشنطن العاصمة، لا تتوقع المواجهة وتقول إن صُنّاع السياسة في بكين قد انزعجوا من توبيخ الصين، الذي بلغ درجة لم تشهدها البلاد على مدار جيل كامل. وقد فوجئت الصين برد الفعل الذي تخطّى المنطق مثل ما حدث بشكل خاص في هونغ كونغ التي بالغت في ردة فعلها. وأبدى المسؤولون الصينيون الأكثر تعقلاً قلقهم من أنه، وللمرة الأولى منذ 40 عامًا، بات هناك تهديد حقيقي بوقوع صدام عسكري مع الولايات المتحدة، ولعله سيدور حول قضية تايوان أو بحر الصين الجنوبي، أما المسؤولون الصينيون الأكثر تهورًا، فقد أعلنوا عن ترحيبهم بتلك الفرصة التي قد تتحول إلى معركة دامية.
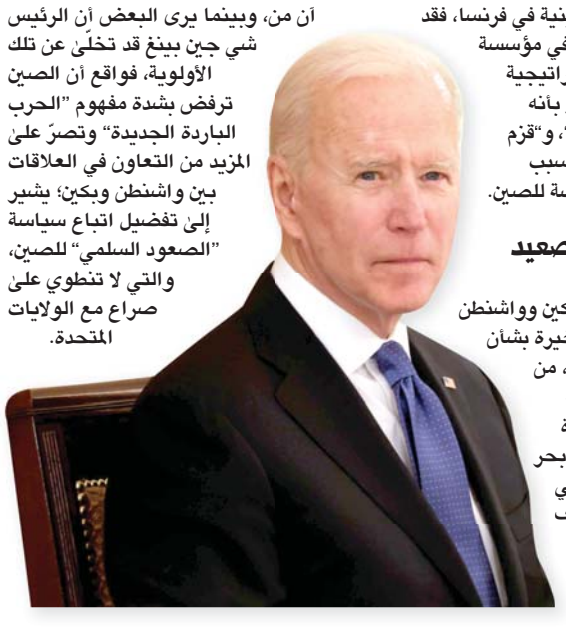
ولذلك، ترى يو صن أن واضعي الخطط الأكثر رصانة في بكين يأملون أن تُؤدي إدارة بايدن إلى استقرار العلاقات. والواقع أنه منذ عهد الزعيم الصيني البارز دنغ هسياو بينغ، كانت الأولوية بالنسبة إلى الصين هي الاستقرار في ما يخص العلاقات الثنائية الرئيسية على الرغم من المشكلات الرئيسية التي أعاقت تلك العلاقات بصورة عرضية، مثل ما حدث عقب أحداث ساحة تيان آن من، وبينما يرى البعض أن الرئيس شي جين بينغ قد تخلّى عن تلك الأولوية، فواقع أن الصين ترفض بشدة مفهوم "الحرب الباردة الجديدة" وتصرّ على المزيد من التعاون في العلاقات بين واشنطن وبكين؛ يشير إلى تفضيل اتباع سياسة "الصعود السلمي" للصين، والتي لا تنطوي على صراع مع الولايات المتحدة.